

في شروائب المعاجم

لحضرة المؤري بطرس البستاني

يتي حضرة الكاتب على جهود التويين القدماء الذين توفروا على جمع ثنات اللغة من أفواه العرب المخلصاء ، فيحيمهم بمواطف الاجلال . ولكنه لا يرى بدأ ، في بحثه ، من ان يذكر ما شان معاجمهم من الشوائب ، وامهات ، نوردما ببعض اختصار :

الكاتب الاول : سؤ الاختيار للالفاظ وعدم التحرر من الحوشية والحوشية من المعلوم ان جامعي اللغة كانوا ، اذا ارادوا ان يولفوا كتاباً لغوياً ، يجتازون الى البادية حيث يجتمعون بالقبائل ، فينقلون عنهم . ما يروونه لهم من الروايات ، وما يسمونه من أفواههم من الكلمات في عاداتهم ومسايراتهم ومناظراتهم ومناقراتهم . وربما كانوا يتابعون الرحلات الى تلك البوادي السحيقة للتحقيق والتثبت .

غير انه لا يمكننا ان نجزم بان كل ما اشتمت عليه معاجمهم هو منقول عن القبائل الصرحاء الذين لا متقف في عربيتهم ، ولا ممتز في فصاحتهم . والا ما كنا نرى في تلك المعاجم نحواً من عشر الفاظها مما لا يسوغ استعماله في الكتابة ، اما لمخافتته للذوق الصحيح ، او لمكانه من التزابة ، او لبوغله في الحوشية والحوشية ، الى غير ذلك مما كان دفته خيراً من بقائه كالدمل في جسم اللغة البهي

وبما هو جدير بالاسف انه بات من الراسخ في وحننا ان تلك الالفاظ المستكرمة لا بد من اثباتها في معاجمنا ، والا اجتحننا انقطع جريرة في حق لغتنا ، وأفقدناها كترًا ثميناً لا يعوض . ولا نعلم متى تقط هذه الكلمات المنبوذة من معاجمنا بل من الكتب التي تتداولها ايدي الناشئة

الكاتب الثاني : عدم التمييز

اذا تصفحت احدى مواد اللغة آية كانت ، وفي اي معجم كان من أمات المعاجم القديمة ، انكرت البلبلة السائدة في نطق سردما ، وهالك ان يختلط بعضها

ببعض اختلاطاً يستنظمه كل من يرضن بوقته الذمبي . ولم تتمالك عن ان تحكم بان اولئك اللغويين كان مهمهم الوحيد ان يجمعوا الفاظ اللغة في كتبهم للرجوع اليها لدى الاقتضاء . ولم يمتد نظرهم الى من سوف يجيء بعدهم من الاعساب عن تضايرهم الحال الى الاستطاعة بمثل هذه المراجع اللغوية .

ولو كانت المادة التي تريد تصويبها واقعة في صفحة او صفحتين لمكان الامر، ولكنها كثيراً ما تستوعب عشر صفحات ونيقاً؛ حتى لقد ينفد صبر الباحث عن معنى احدي الكلمات فينقلب والاسف مل صدره بدون ان يتال وطراً

الثابة الثالثة : التعريف الدوري

من المقرر ان الغاية من تعريف الكلمات الايضاح وازالة الاجهام . فاذا كانت اللفظة المفترسة لما قبلها في حاجة الى الشرح، او هي انغرض معنى من اللفظة المفترسة، او قمت المطالع في الارتباك . وهذا الحلل قلما يسلم منه معجم من المعاجم قديمة كانت او حديثة . واكثر ما يقع ذلك عن سهو وغفلة والاحكامنا بالمعجز والتصور على اصحابها الذين هم اسراء البيان وائمة اللغة في كل عصر واوان . والمراد بالتعريف الدوري ان تفسر كلمة باخرى مرادفة لها، ثم تفسر الثانية بالاولى، كذلك تفسر الماء بالماء . وودونك بعض مثل عليها منها قولهم : تلافى الامر : تداركه . وتدارك الامر : تلافاه ؛ وهذا التعريف الدوري لهذا الحرف واقع في جميع المعاجم وهو من القرابة بمكان . ومن هذا الضرب قولهم تنجز الحاجة : استنججها ، واستنجج الحاجة : تنجزها . ومنه قولهم الجوز : الهواء ، والهواء : الجوز .

الثابة الرابعة : التفسير في تعديرة الافعال القاصرة

متى عرفت ان شيوخ اللغة وانتمها الافذاذ كثيراً ما يرتبكون في تعديرة بعض الافعال القاصرة التي ذهلت المعاجم عن ذكر الحروف التي تتمدى بها الى مفاعيلها ، ادركت ما جناه مؤلفو تلك المعاجم الى اللغة والمتكلمين بها بسبب هذا الاحمال .

ونحن لا يخامرنا ادنى ريب في ان هؤلاء الجهابذة الذين قطعوا مراحل

الحياة ، وهم مكبون على درس اللغة واستنباط امربها وغربة اوضاعها ، حتى أفضت اليهم بمآليدها وسلّمتهم زمامها ، لم يحلوا ما عملوه لتقص في معرفتهم اللغوية . وانما وقع ذلك منهم إما سهواً ، او لاعتمادهم على تبخّرهم في اللغة تبخراً يفنيهم عن تدوين ما ليسوا في حاجة الى تدوينه .

الكاتب الحارس : الخلط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي

المراد بالمعنى الحقيقي هنا المعنى الاصيل الذي عينه الواضع للكلمة عند استعمالها لأول مرة ، وبالمجازي ما تفرّع عن المعنى الحقيقي لمناسبة بينهما . وهذه المناسبة لا بدّ من وجودها بين المعنيين ، وهي بمثابة الصلة بين العلة والمطلوب . فاذا أُتدّت هذه الصلة كان للفرعي مجال لان يحكم بطوره المعنى الثاني على المعنى الأوّل ، بل كان له سبيل الى القطع بان المعنيين انما استعملتهما قبيلتان لا قبيلة واحدة بمدّ تفرّق القبائل واضطراب سلسلة الوضع . وما من شيء اصب على اللغويين من هذه البلبلة في موادّ اللغة ، ولا سيما اذا كانت المادة تشتمل على ثلاثة او اربعة معانٍ متباينة ، وكان لكل معنى فروعه .

وأصعب من كل ذلك ان تكون الفروع متشابكة مختلطة بحيث لا يقوى على ردّ كل فرع الى اصله الا اللغويّ الضليع الذي ذلّل شكيبه اللغة فلسّ له قيادها . اما من كان قاصر النظر في الفلسفة اللغوية فانه يتنفس الصمدا . قبل ان يتسنى له تفرّيع الالفاظ وتخرّيجها تخريجاً منطبقاً على سرّ الوضع ، وموافقاً لمراد الواضع .

ولا بدّ لنا في هذا المقام من ان نبين لشداة العلم ان الصلة التي يجب ان تكون بين كل اصل وفروعه انما هي ذات الصلة الواقعة في المجاز . وهو في علم البيان نوعان : احدهما المجاز المبني على التشبيه ويقال له الاستمارة ، والآخر المجاز المرسل ، وهو ما كان اما من قبيل التضنّ كأن تستعمل الكل في موضع الجزء او الجزء في موضع الكل ، او من قبيل الالتزام كأن تستعمل المحلّ بدلاً من الحالّ فيه .

اما المجاز المبني على الاستمارة فن امشاله قولهم : كلب فلان اذا اكل

كثيراً بلا شيع واضابه شبه جنون الكلاب من عرض الكلب الكلب .
وكلب على الامر حرص عليه حرص الكلب . وكالب ضايقه مضايقة الكلاب
بعضها بعضاً عند المهاوثة . وتكالب القوم على كذا توابوا عليه . وتكالب
الناس على الدنيا اشتد حرصهم عليها حتى كاتهم كلاب .

واما المجاز المرسل فن امثاله قولهم بسرته اي اعجله ، وبسر النخلة
لتعها قبل اوائها ، وبسر الدين تقاضاه قبل محله ، فقد استعمل النقل في الاصل
لمطلق العجلة ثم خصصه بالنخلة والدين ، فاشتق الخاص من العام او استعمل
الخاص في محل العام ، وهو من مواضع المجاز المرسل .

بقي ان نرشد الطلاب الى الخطة التي يجري عليها اللغويون في تمييز الفروع
من الاصول وهي انهم ينظرون في كل مادة الى المعنى المتبر عن المحسوسات
ويستبرونه اصلاً لما يتفرغ عنه من المقولات ، لان المتواضعين على اللفظة ، عندما
وضوا موادها ، قدموا في الوضع الاشياء المحسوسة على المقولة على ما اقتضته
بدواتهم في ذلك المهد . ثم اخذوا ، بعد ان اشرفت في روعهم شمس الحضارة ،
يحلّقون فرق المادة ويسبحون في بحر الخيال ، فوضعوا الفاظاً كثيرة للمطاني المجردة
التي يذكها العقل ولا تقع تحت الجواس ، فكان من ذلك وثبة مباركة الى
الطويات ، بعد ان قضوا عصوراً في عصور لا يتعدون المحسوسات . وقد سلف
لنا كلام بهذا المعنى في باب سابق . على انه ليس في تمييز المقول من المحسوس
ادنى صعوبة . ولكن الصعوبة في ما لو كان للكلمة معنيان كل منهما يدل
على شيء محسوس . فاقوم ضابط لمعرفة ايها هو الاسبغ ان تنظر الى المعنى
الذي قضت الحاجة على البدوي باستعماله قبل الآخر ، فيكون اصلاً له .

وبما لا ريب فيه ان اللغويين القدماء انما اهلوا الجري على هذه الخطة
الرشيده في تنسيق المطاني الاصلية والفرعية ، ابناء لاعتمادهم على مقدرتهم اللغوية ،
او لاقتصارهم على جمع الالفاظ في كتب اللفظة حذراً من الضياع ، معتبرين ان
مهمتهم قد انتهت عند هذا القدر . ثم جاء المتأخرون ونسجوا على منوال الاقدمين ،
وبقيت هذه الثلثة مقفورة في مطاحننا لان الشرقيين عرفوا بالتقليد ، وعزفوا عليهم
ان يفكروا نفوسهم من قيوده .

الثانية البارزة: اهم الهمز للافظاظ المولدة

لقد بلغ من حرص اللغويين القدماء على لغة اهل الحجاز وغيرهم من القبائل النازلين في قلب البادية أنهم اعتبروا كل ما تداولوه من الالفاظ كأنه من الآيات المترلة فاقبته في معاجمهم ، وايوا ان يضوا اليه ما كانت تتاوره سائر القبائل ، ولاسيا المجاورة للاعاجم ، كانه من سقط المتاع او كأنه وباه تسري عدواه الى جسم اللغة فيفسده . ولذلك لم ترَ في الاسفار اللغوية كثيراً من الالفاظ التي كان يستعملها اليمينيون والصّانيون واهل الحيرة وسواهم من القبائل المتحصّرة النازلة في اطراف الجزيرة او التي لها خلطة بالامم المريبة في المدينة . فافقدوا اللغة بهذا الاممال ما لا يحصى من الاوضاع ، كما كانوا يستخدمونه في الاغراض التي جدت عندهم في ابان حضارتهم ، ولم يكن للمرب في اواسط البادية ادنى عهد به .

ولولا هذا التقصير ، لما كنا اليوم على ما نحن عليه من العجز الفاحش عن تأدية كثير من المعاني والادوات الحضرية بالالفاظ نستخرجها من معدن اللغة نقها ، جادين في ذلك على الطريقة التي جرى عليها اولئك المتحصرون في ايجاد كلمات حديثة لما جدّ عندهم من المعاني ، بعد انتقالهم من خشونة البداوة الى نعومة الحضارة . فكان عن هذا التقصير ضرر يتن لا تزال نثمر مجامته ، ولاسيا في هذا العصر الحافل بالاختراعات والاكتشافات ، الزاهر بآيات التفتن والابداع .

على انهم لو وقفوا عند هذا الحد من التفريط لكانت البلية أخف وطأةً وأيسر محلاً ، ولكنهم أعرضوا ايضاً عن اغلب الالفاظ التي جدت في اللغة ولاسيا على عهد الباسيين ، بوجّة انها من استنباط المولدين لم تجر على ألسنة العرب الخالصاء ، لا في جاهليتهم ولا في صدر الاسلام . . .

فاذا تمثّلت عصر الباسيين بجميع مجاليه الحضرية ، وعرفت ان ابناؤه لم يمجزوا عن استنباط كلمات لجميع المعاني والاعراض التي تولدت عندهم ، اكبرت الخطب الذي اتزله باللغة ارباب المعاجم لاسقاطهم منها تلك الكلمات

المولدة التي لو بقيت لكانت أنفس قلادة في جيد هذا اللسان الشريف .
وما نحن نورد لك هنا شيئاً من تلك الكلمات مما عثرنا عليه في تضايف
الكتب وليس له اثر في مصاحف اللغة :

تقد جاء في كلام ابن خلدون : الالهام ، يريد به الهداية المخلوقة في الحيوان ؛
والوزائع ، يعني بها الضرائب التي يوزعها الحاكم على الرعية . وورد في كتاب
الاغاني : ندر الرجل وتندر اذا جاء بالنادرة . وقد ندر بفلان وتنادر عليه
اذا جملة مورد تادرته . وفي الثمالي : تطرف بالكشي . اذا اتخذ طرفه وهي
الشي . المستلح . وجاء في نفع الطيب : بلاد معتدلة الزواج اي معتدلة الهواء .
وردد فيه ايضاً : المقيته والمراد بها الدقتر الذي يكتب فيه الرجل ما يرب به
تذكرة لنفسه . وقريب من هذا المعنى التذكرة وهي الرقعة يكتب فيها الشيء .
ليذكر ، وقد وردت في خزنة الادب للحموي . ومن هذا النوع المزولة للساعة
الشمسية ، ذكرها الخنجاوي في ربحانة الالباء . والمقال لما يشد على الرأس ، جاء
في شعر لابي قراس الحمداني . وخيال الظل للامثلة المشبهة من وراء ستار .
وما هو حري بالاسف ان اولئك اللقويين قد توفعوا عن ان يثبتوا ايضاً في
معاجمهم الفاظاً شتى احدها المولدون فنقلها عنهم الفرنجية الى لغاتهم وشاع
استعمالها عندهم . ومن ذلك لفظة (Alcool) المأخوذة عن الكحل ، ولفظة
(Almanach) المأخوذة عن المناخ ، ولفظة (Carafe) المأخوذة عن الفرافة ،
الى غير ذلك من الكلمات التي تنسبها المعاجم الاوربية الى العرب ولا يقر
بعروبتها ارباب المعاجم عندنا .

ونحن نجس القلم عند هذا القدر لعله يستخير المهم الوانية الى تدارك ما
فات ، واصلاح كل خلل في لغتنا المحبوبة .

